الفصل الخامس عشر

خونكار اسكله سى

قبل أن توقع معاهدة كوتاهية بعدة أسابيع أمر صاحب الجلالة الإمبراطورية قيصر الروس الكونت أُرْلوف Count Orloff أن يسرع إلى الآستانة . وقد أوفده إليها فى مهمة خاصة ، يدل على مداها اللقب الذى لقب به وهو « السفير فوق العادة والقائد العام للقوات الروسية فى الإمبراطورية العثمانية »[1] .

ودخل السفير العاصمة العثمانية باحتفال مهيب فى اليوم السادس من شهر مايو سنة ١٨٣٣ . ولم يقلل من جلال الاحتفال وهيبته أن محموداً ومحمداً عليًا كانا قد سويا ما بينهما من النزاع ، بل ربما زادته هـذه التسوية فى الحقيقة جلالاً فوق جلاله .

ولم يكن الباعث على هذا التباهى هو الغرور وحب المظاهر ، بل كان هذا الجنون يسير على نظام مرسوم وخطة مقررة . ولما عرف الكونت أُرلوف بأن معاهدة الصلح قد وقعت بحث عن حجة يتذرع بها لتبرير مجيئه إلى الآستانة ، فأعلن من فوره أن مقامه على شواطئ البسفور ليس إلا دليلاً محسوساً على الوفاق التام السائد بين السلطان وقيصر الروسيا[2] . ثم أطال المكث ليمهد السبيل إلى جلاء القوات الإمبراطورية عن الآستانة . وأثار وجوده غيظ رومن الشكس الغضوب ، كما أن پنسنبى Ponsonby الهادئ الرزين علق عليه فى رسائله التى

(١) المسألة المصرية تأليف المسيو ده فريسنيه طبع كالمان ليفى بباريس ص ٢٧ .
(٢) المصدر عينه فى نفس الموضع .

بعث بهـا إلى لندن . ولم يلبث الرجلان أن أدركا حقيقة ما ينطوى عليه كل هذا الدهاء الروسى من معان ، إذ عرفا أن معاهدة وقعت فى اليوم الثامن من شهر يوليه سنة ١٨٣٣ بين أورلوف والريس أفندى جاء فى المادة الثالثة منها ما يأتى :

« لمـا كان جلالة إمبراطور الروس جميعاً يرغب رغبة صادقة فى المحافظة على استقلال الدولة العثمانية التام ، إذا ما أجبرت الظروف الباب العالى على طلب المعونة الأدبية والمساعدة الحربية من الروسيا — وإن كان هذا الاحتمال بحمد الله غير متوقع — فإن جلالة الإمبراطور يتعهد بتقديم القوات البرية والبحرية التى يرى الطرفان المتعاقدان وجوب إرسالها » .

وكانت هناك مادة سرية ملحقة بهذا الاتفاق تحتم على تركيا أن تقفل مضيق الدردنيل فى وجه سفن جميع الدول ، إذا اشتبكت الروسيا فى حرب خارجية .

ولمـا وصل نبأ هذا الاتفاق إلى مسامع روسن ثارت ثائرته . ويقول لنا المسيو ده فريسنيه M. de Freycinet وهو الذى كان على رأس الوزارة الفرنسية حينما احتلت إنجلترا مصر فى عام ١٨٨٢ : « إنه رغب فى أن يبلغ الباب العالى أنه إذا تمسك بشروط المعاهدة ، فإن عمله هذا يثير عداء فرنسا لا محالة . لـكن السفير البريطانى اللورد بنسنبى أبى أن يسلك هـذا المسلك رغم مشاركته روسن فى شعوره »[1] .

ولسـنا نريد أن نطيل القول فى هذا الموضوع لأن إبراهيم لم يشترك فى المباحثات التى استتبعها هذا الاتفاق ؛ وإنما نريد أن نقول إن هذه المعاهدة هى التى أشار إليها اللورد بنسنبى فى خطابه السرى إلى الـكولونل كامبل ، وهو الخطاب الذى اقتبسنا منه فى آخر الفصل السابق . وعلى أثر هذه المعاهدة ازداد

(١) المصدر عينه ص ٢٨ .

تدخل الروسيا فى بلاد الشام ، وهو التدخل الذى كشف أمره السفير البريطانى فى مذكرته السالفة الذكر ؛ ونشطت فيها الدسائس ، وأخذ الرسل يحرضون المسلمين والأرثوذكس المسيحيين على الثورة . ولم يعن رسل القيصر بطبيعة الحال بدس الدسائس بين المسلمين ، بل تركوا ذلك للأتراك . ولنفصل أسباب هذه الثورة فنقول :

ذكرنا من قبل أن القنصل البريطانى العام بالإسكندرية أبلغ فى ١٥ إبريل سنة ١٨٣٣ أنه « لا يوجد فى الوقت الحاضر سبب صحيح للشكوى من الحكومة القائمة فى بلاد الشام » . وذكرنا أيضاً أن المبدأ الذى سار عليه إبراهيم فى حكمه هو مبدأ المساواة الدينية بين جميع السكان . وقد رأى عمال القيصر والساخطون من الأتراك فى هذه الحرية الفكرية أنجع وسيلة لإثارة نقع الفتنة فى تلك البلاد .

فأما سبب اعتراض الرجعيين من المسلمين على حرية إبراهيم الدينية فأمر بديهى لا يحتاج إلى شرح أو إيضاح . ذلك بأن فى هذه الحرية قضاء لا مرد له على تعصبهم وآرائهم الرجعية . وأما سبب استياء إحدى الطوائف المسيحية من هذه الحرية فليس واضحاً بل هو فى حاجة إلى الشرح والبيان .

من مبادئ الإسلام الأساسية ، الذى هو من أكثر الأديان حرية من وجوه عدة ، أنه لا يسوى بين الناس جميعاً من الوجهة الدينية ، بل يقسمهم طائفتين إحداهما أحب إلى الله من الأخرى . فأما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله فهم أحب الناس إلى الله ، وأما الطائفة الثانية فتنقسم قسمين : الكتابيين وهم المسيحيون واليهود ، وغير الكتابيين وهم أقل الناس درجات عند الله . وقد قال الله فى هذه الطائفة الأخيرة :

يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ»(١)

ومعنى هذه الآية واضح . وقال فيهم أيضاً :

« وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ »(٢)

أما الكتابيون فيقول الله فيهم :

« قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ »(٣)

و يقول أيضاً :

« فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ »(٤)

والحقيقة التى نتبينها من هاتين الآيتين الأخيرتين من آيات القرآن الكريم أن الإسلام وهو دين الحرية والرقى يقرر فى عام ٦٢٣ أن الذين أوتوا الكتاب يستطيعون أن يبقوا على دينهم بشرط أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . فى حين أن الذى قرره العالم المسيحى فى معاهدة أوجزبرج Augsburg التى عقدت فى عام ١٥٥٥ عند انتهاء حرب السنين الثلاثين ، هو أن يكون للدولة الحق المطلق فى تعيين دين رعاياها ؛ ولم يخفف من وطأة هذه السلطة إلا سماح الدولة لمن

(١) التوبة : ٧٢ .
(٢) الأنفال : ٣٨ .
(٣) التوبة : ٢٨ .
(٤) التوبة : ٣ .

لا يقبلون هذا الشرط بأن يغادروا بلادهم [١] .

وكانت نتيجة تسامح الإسلام أن المسيحيين واليهود لم يمسهم أذى ، ولم تهدم كنائسهم أو معابدهم ؛ وكل الذى فرض عليهم أن يدفعوا الجزية وهم صاغرون . وقد استفاد هؤلاء من صغارهم ، فأثروا لوداعتهم ؛ وكان ذلك مصداقا لما جاء فى الإنجيل « طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض » [٢] ، ولا يظنن القارئ أن فى هذا شيئاً من المبالغة ، ولا يشك فى أنه هو الحق بعينه . ذلك بأن « المؤمنين » لم يسمحوا لأهل الكتاب بأن يحملوا السلاح ، بل أعفوهم من الخدمة العسكرية ، فأقام هؤلاء فى ديارهم يرعون أنعامهم ، ويهتمون بشؤونهم ، ويمارسون شعائر دينهم ، حيث كان يمارسها آباؤهم وأجدادهم .

وبذلك أضحى المؤمنون فى الشرق هم الطبقة المحاربة ، وأضحى غير المؤمنين يسيرون وراء الصفوف يجنون من الحرب الأرباح الطائلة ، ويجمعون المال الكثير ، ولا يؤدون إلى الدولة إلا النزر اليسير من هذه الأرباح ، على هيئة جزية خاصة . فلما فرض إبراهيم مبدأ المساواة فى الدين والمساواة أمام القانون ، وأعفى أهل الكتاب بذلك من هذه الضرائب الخاصة ، كان لابد أن يطالبوا بالخدمة العسكرية فيما بعد .

ولم يكن فى هذا التغيير ما يخشاه المسيحيون أو اليهود ، فقد كان فى القانون منافذ تنجيهم من التجنيد ؛ وكان فى وسعهم أن يبتاعوا هذا الإعفاء بالمال ، وإنما الذى ساءهم وحز فى نفوسهم ، هو أن المساواة لابد أن يعقبها فى العاجل أو فى الآجل القضاء على احتكارهم للتجارة ؛ فكأنهم والحالة هذه رضوا بأن

(١) محاضرات فى التاريخ الحديث لجون إمرك إدورد دلبرج أكتن بارون أكتن الأول طبعه مكملان بلندن سنة ١٩٢٠ ص ١٢٧ .

(٢) متى ٥ : ٥

يعفوا من الضرائب الخاصة ، بل سرهم هذا الإعفاء ، ولـكنهم لم يرضوا بمـا يقابله من الواجبات . وذلك لأنهم ظلوا اثنى عشر قرنا يجنون فى أثناء الحروب طائل الأرباح ؛ فلما رأوا حقوقهم المـكتسبة تتعارض مع مبادئ العدالة والإنصاف التى نشرها إبراهيم فى البلاد ، ساءهم ذلك كثيراً .

وكان الموقف الذى وقفته أوربا من هذه المسألة مجحفاً كل الإجحاف بإبراهيم . ولسـنا نريد أن ندخل فى روع القارئ أن الغرب قد وقف هذا الموقف الظالم عن قصد وعمد ، بل الذى نقوله ونصر عليه أنه كان موقفاً ظالماً بالفعل ، وإن كان قد أعجب بمبدأ المساواة أمام القانون . وقد حدد اللورد بلمرستون هـذا الموقف بتصريحه الذى قال فيه :

« لأوربا الحق فى أن ترجو أن يعنى رعايا الباب العالى المسيحيون ، الذين وضعهم السلطان مؤقتاً تحت حكم محمد على ، من نظام التجنيد الجديد ، الذى يرى الباشا من حقه أن يثقل به كاهل السكان المسلمين ، بعد أن وكل إليه النظر فى مصالحهم والعمل لخيرهم » .

ومعنى هذا أن وزير الخارجية البريطانيـة لم يكن يعارض فى التجنيد من حيث المبدإ ؛ ويلوح أنه لم ير عيباً فى إعلان المساواة أمام القانون ؛ وكل الذى يبدو لنا أنه يرغب فيه هو أن يسمح للمسيحيين أن يجنوا الخير و يستمتعوا به ، وهذا بعينه هو ما سمح لهم به إبراهيم . والدليل على ذلك ما أجاب به الـكولونل كامبل القنصل العام فى الإسكندرية عن الانتقادات التى احتواها تصريح اللورد بلمرستون إذ قال إنه :

« طاف منـذ زمن قريب فى بلاد الشام ، فرأى فيها الحجاج وقد نقش الصليب على ذراعهم ، وأخبروه أنهم لم يجروا على هذه العادة ليمتازوا عن

المسلمين فحسب ، بل ليطمئنوا أيضاً إلى أنهم لا يدعون إلى الخدمة العسكرية الإلزامية »[١] .

وأرى كثير من السوريين المسيحيين فى أيام العهد البائد ، حين كانوا يعطون الجزية وهم صاغرون ، فرأوا من مصلحتهم والحالة هذه أن يوجهوا قوارص ألسنتهم إلى إبراهيم . وأنت إذا اعتديت على قدسية الاحتكار ، وانتهكت حرمة الحقوق المكتسبة ، واجترأت على معاقل الامتيازات التى تتمتع بها الطبقات ، إذا فعلت ذلك فقد سعيت إلى حتفك بظلفك . ولذلك لم يمض إلا القليل من الزمن حتى وقع ما كان لا بد من وقوعه ، فاستحال الاستياء قلقاً ، والقلق ثورة ؛ فخرج الأرثوذكس على إبراهيم ، ولكن خروجهم هذا كان من أكبر الأسباب التى دعت إلى انضمام الكاثوليك أو الموارنة السوريين إلى جانبه . وكان مثلهم فى ذلك مثل الإرلنديين ، فإن الروح التى تدفع أهل الستر والكاثوليك الإرلنديين إلى أن يعارض كلا الفريقين الفريق الآخر فى كل مسألة تعرض لها ، ولا يتفقون إلا فيما جبلوا عليه من حب القتال ، هذه الروح هى نفسها التى دفعت الطائفتين السوريتين المسيحيتين إلى أن تقف كلتاهما من الأخرى موقف العداء . ولما كان الدروز هم أعداء الموارنة على الدوام فقد انضموا بطبيعة الحال إلى أعداء إبراهيم .

وكان عداء الدروز من أوخم العواقب التى ترتبت على معاونة المارونيين للحكومة الجديدة . ونحن نعتقد أن إبراهيم قد تنبأ بهذه النتيجة ووطن نفسه عليها ، لأنها نتيجة محتومة ؛ ولكن الذى لم يقدره أن عداء الدروز قد ضم إلى معسكر أعدائه السيدة هستر لوسى استانهوب Lady Hester Lucy Stanhope[٢] ،

(١) دذول فى كتابه السالف الذكر ص ١٥٩ .

(٢) هى الابنة الكبرى لتشارلس استانهوب (إرل استانهوب الثالث) وأمها السيدة =

ابنة أخت وليم پت William Pitt ، وحفيـــدة لورد تشاتام الأول Lord Chatham . وكانت هذه السيدة من أعظم النساء وأجلهن قدراً ، كانت تجلس فى صدر مائدة پت ، وتحيي ضيوفه ، وتزين مجالسه بجمالها البارع ، وتشرح الصدور بقريحتها الوقادة وبديهتها السريعة . ولما مات خالها سكنت فى ميدان منتاجيو Mantague Square بلندن ، ولكنها لم تطق الحياة فى إنجلترا دون أن تتمتع بلذة الاختلاط بكبار الساسة من حزب المحافظين . ولما ضاقت ذرعا بهذه الحياة الملة فرت منها إلى معاقل ويلز Wales ، وأخذت بعد ذلك تتنقل فى أقطار العالم ، حتى استهوتها بلاد الشرق الأدنى ، فألقت عصى التسيار بين دروز جبال لبنان .

وصار لها فى موطنها الجديد سلطة تكاد تكون مطلقة من كل قيد ، وأصبح حكمها مطاعاً ، وكلمتها نافذة فى جميع الجهات المجاورة لهذه البلاد ؛ ورجاها إبراهيم أن تقف على الحياد ، ولكن الحياد لم يكن من شيمتها ، بل كانت تؤمن بحكمة الإنجيل « من ليس معى فهو على »[1] فأضحت لذلك من أشد الناس طعناً على الحكم المصرى . وكان لطعنها هـذا أثر عظيم ، لأن اسمها وخلقها كانا يزيدان أقوالها قوة على قوتها ، ولأنها لم تكن تعرف « للتراضى » معنى . وكان إخلاصها الشديد ونبل عواطفها لا يعادلها فى الشدة إلا تطرفها فى تشيعها .

وقد اطلعنا فى ملفات القنصلية البريطانية العامة على شكوى عليها توقيع رجلين من أهل الشام ؛ يظهر من اسميهما أنهما من أصل مارونى ، وإن كنا لا نجزم بصحة هذا الاستنتاج . ولما كانت هذه الوثيقة هى مثال من الوثائق

= هستر أخت وليم پت الشهير ، ولدت فى سنة ١٧٧٦ وتوفيت فى سنة ١٨٣٩ . وهذا الوصف الذى وصفها به المؤلف مأخوذ بنصه من دائرة المعارف البريطانية . (المعرب)

(١) متى ١٢ : ٣٠ ، لوقا ١١ : ٢٣ . (المعرب)

التى يكتبها أهل البلاد الواقعة فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وكانت فوق ذلك مما يميط اللثام عن خفايا سياسة ذلك الوقت ، فقد آثرنا أن ننقل بعض ما جاء فيها . والشكوى مكتوبة باللغة الإنجليزية وعليها توقيع « جبريل وفرانسس حمصى » ، وقد جاء فيها :

« نحن الموقعين على هذا نقدم ملتمسنا فى خضوع إلى سموكم ، لنعرض عليكم أننا قد أقرضنا السيدة إستر استانهوب (كذا) Esther Stanhope ، من رعايا بريطانيا ومقيمة فى سوريا بجوار صيدا ، مبلغ خمسة آلاف وثلثمائة ريال نقداً على أن ترد هذا المبلغ كمبيالات فى خلال ثلاثة شهور . وكل ذلك ثابت من صك بخطها تحت يد مقدمى هذا الملتمس . وقد مرت عليهما تسع سنين من غير أن ينالا من السيدة إستر شيئاً غير الوعود الجوفاء . . . . ولهذا فهما يركعان بين يدى سموكم ، يلتمسان من عدالتكم أن تطلبوا إلى البعثة البريطانيـة فى هذا القطر أن تفحص المسألة ، حتى إذا تبينت صدق أقوالنا هذه اتخذت ما يلزم من الإجراءات لإرغام السيدة إستر على أداء المبلغ السالف الذكر »[1] .

لم يكن فى أخلاق محمد على ولا فى أخلاق إبراهيم شىء من الضعة والصغار ، بل كانا من الصنف الذى يسميه الفرنسيون «السادة العظماء» Grands Seigneurs . لكن هذا المعروض هو من نوع المعروضات التى يلذ للمرابين السوريين أن يتقدموا بها إلى كل حكومة تلى الأمر ، يرجون بها أن ينالوا الحظوة لديها . ولسنا نعرف ما انتهى إليـه أمره ، ولـكننا نعلم علم اليقين أن دائرة المعارف البريطانية تقول إن السيدة هستر استانهوب كانت ذات مواهب عظيمة تمكنها من حسن

(١) صور سجلات الوثائق الدبلوماسية الخاصة بشؤون مصر فى سنة ١٨٣٤ بدار الكتب المصرية بالقاهرة وثيقة رقم ٧٩ .

القيام على الأعمال ؛ وإنها أصبحت كاتمة أسرار پت Pitt الخصوصية بعد أن اعتزل منصبه ، وإن البرلمان قرر لها معاشاً قدره ١٫٢٠٠ جنيه فى العام مدى الحياة . ومن هذا يرى أنها كان لديها ما يكفيها ؛ وإذا كانت لها فوق ذلك « مواهب عظيمـــة تمكنها من حسن القيام على الأعمال » ، فإنها لم تكن فى حاجة إلى الاقتراض .

ولنترك هـذه المسألة الآن لنقول إن ددول Dodwell ، مؤلف كتاب « منشئ مصر الحديثة » يقص علينا أن جماعة من عمال الأتراك استطاعوا أن يستفزوا السوريين المسلمين لمقاومة إبراهيم . ولسنا نعجب لقوله هذا ، فإن فى كل دين طائفة من المتحمسين المتعصبين يحيون حياة بريئة من المذام ، قلوبهم عامرة بالإخلاص لدينهم ، ولا يفرطون فى شىء من عقائدهم ؛ ولكن عقولهم أضيق من أن تتسع لآراء غيرهم . لقد كان سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) أوسع الناس عقلاً ، ولكن بين أتباعه أناساً ، هم مثال الطهارة والصلاح ، غير أنهم لا يرون الخير إلا فيما يعتقدون ، ويغفلون عما فى آراء جيرانهم من صواب . وكان فى الشام نفر من هؤلاء ، قام واحد منهم وصعد إلى مأذنة فى مسجد نابلس ظهر يوم من أيام الجمعة من عام ١٨٣٤ ميلادية ، وصاح بأعلى صوته قائلاً : « لقد درست معالم الإسلام ومحى من الوجود ، ألا يجرى فى عروقنا الدم التركى ؟ ليقم كل رجل يحب النبى إلى سلاحه فيقتله ، وليذهب لقتال هذا الرجل الذى لا إيمان له ، هذا الجاور[1] إبراهيم باشا ، هذا السكير الذى يدمن شرب الخمر والنبيذ ، والذى يأكل لحم الخنزير وكل مايخرجه البحر من أقذار كما يفعل المسيحيون (يشير إلى ما اعتاده إبراهيم من أكل الحيوانات البحرية) ، والذى يسكن الأديرة مع القسس ،

(١) كلمة تركية معناها « الكافر » . (المعرب)

ويصلى معهم ولا يذهب إلى المساجد قط »[١] .

لم نجد قط دليلاً يثبت أن إبراهيم كان يأكل لحم الخنزير ، ولهذا نشك فى أنه كان يأكل أى نوع من أنواعه أو أنه كان يوضع على مائدته ؛ وأما التهمة الأخرى تهمة إدمان الخمر فهى أيضاً تهمة لم يقم عليها الدليل .

فلما وقف المسيحيون فى وجه إبراهيم لأسباب تتعلق بهم وحدهم ، وعاداه أيضاً المسلمون ، تحرجت الأمور وتهيأت أسباب الحرب العوان . ولم يكن إبراهيم ليعجزه أن يقطع دابر الفتنة فى المدن الكبرى ، ولكنه أوتى من أصالة الرأى وحسن السياسة ما جعله يعمل أولاً لاتقاء الخطر المحدق به بسبب وجود مرسى لدعائم الاضطراب فى حلب على مقربة من جبال طوروس . ولذلك اتفق مع أحد رؤساء العشائر على أن يقوم بمهمة حفظ النظام فى ذلك الإقليم ، ثم عقد محالفات أخرى مع غيره من الرؤساء . وأخيرا نجح ، بعد أن لاقى قليلاً من الصعاب ، فى نشر لواء القانون فى البلاد . لكن السلطان كان لا ينفك يعمل على إثارة الفتن ، ولذلك لم يلبث القلق الذى كان سائدا فى الداخل أن تحول إلى حرب خارجية شغلت بال إبراهيم وملكت عليه جميع تفكيره .

وحاول محمود فى مايو سنة ١٨٣٤ أن يستعين بثورة الشام على استعادة ما فقده من الأملاك[٢] . وكان رشيد باشا الصدر الأعظم ، وهو القائد التركى الذى أسره إبراهيم فى موقعة قونية ، مقيما وقتئذ فى سيواس عند الحدود التركية المصرية الجديدة ، بحجة أن القلق الذى كان سائدا فى بلاد الأكراد منذ زمن بعيد يستلزم وجوده هناك . وظن السلطان أن اضطراب الأمور فى الشام يهيئ له أحسن

(١) ددول فى كتابه السالف الذكر ص ١٥٦ .

(٢) قطاوى فى كتابه السالف الذكر جزء ٢ ص ١٣٠ .

الفرص للزحف بذلك الجيش على البلاد التى تخلى عنها لمحمد على . لكن بنسنبى وروسن كان لا يعزب عنهما أنه إذا أقدم السلطان على هذا الأمر ، فإن إبراهيم لن يكتفى بالقضاء على الجيش العثمانى بل سيزحف أيضاً على الآستانة ، ولذلك استخدما نفوذهما لدى الباب العالى ليحتفظا لتركيا بمدينة القياصرة . ولم يكن سبب هذا التدخل بغضهما إبراهيم بل رغبتهما فى بقاء الآستانة فى يد الأتراك .

وقد أهاج هائج محمد على موقف محمود العدائى ، وانتصار الدول له ؛ فشرح الأمر لإبراهيم فى خطاب كتبه إليه بتاريخ ٢٤ أغسطس سنة ١٨٣٤ ، بسط فيه الموقف كله ، وأشار إلى سعى السلطان المعجل لإيقاد نار حرب جديدة ، وختمه بقوله : « ونرجو أن نتمكن من إقناع أوربا بغدر الباب العالى وتحرشه ، فنستطيع بذلك أن نحطم أغلال الذل التى تطوق أعناقنا »[1] .

وقد كتب محمد على خطابه بهذه اللهجة ، لأن بطانته اشتد عداؤها لشروط معاهدة كوتاهية . نعم إن أحدا لم يجرؤ على انتقاد الباشا ، لأن حاشية الملوك فى تلك الآيام لم تكن ترى أن الجهر أمام الأمير الشرقى بأنه ارتكب خطأ ظاهرا مما يطيل أعمار رجالها ؛ ولكن الناس لا يعدمون منفذا من الوسائل لإبلاغ رسائلهم إلى من يريدون إبلاغها إليه ، من غير أن يكتبوها على القرطاس . ولذلك أخذ من حوله يمتدحون نبله ومروءته ، ويعظمون الشهامة التى أظهرها حين تخلى عن ثمار نصره ؛ وقالوا له مرارا إن محمودا يجب عليه أن يحمد لمصر نزولها باختيارها عن استقلالها الذى كان منها قاب قوسين أو أدنى[2] .

وإذا كان لا بد من الاستعانة بهذه الخطط وغباوة محمود لحمل محمد على باشا

(١) المحفوظات الملكية المصرية بسراى عابدين القسم التركى .

(٢) دون فى كتابه حرب الشام الأولى طبعته الجمعية الجغرافية الملكية المصرية بالقاهرة الجزء الثانى ص ٢٨٩ .

على كتابة خطاب ٢٤ أغسطس سنة ١٨٣٤ ، فإن رد إبراهيم لم تمله عليه مثل هذه الضرورة ، وقد جاء فى هذا الرد المؤرخ ٣ من سبتمبر سنة ١٨٣٤ :

« كتبت إلىّ تقول إنه يجب علينا الآن أن نحطم أغلال الذل التى تطوق أعناقنا ، وإن الأجدر بنا أن نضع هذه الأغلال فى رقاب من فى الآستانة . فهل تسمحون لى أن أذكركم بأنى لما عرضت عليكم فى أثناء الحرب الأخيرة أن نصمم على إلقاء ذلك النير عن عاتقنا ، أجبتم بأنكم لا تريدون إلا أن تكونوا محمداً علياً فحسب ؟ فإذا كنتم ترون الآن أن الموقف قد حان لتحطيم هذه الأغلال ، فاسمحوا لى أن أقول إنى لا أرى هذا الرأى ، لأن الإقدام عليه ليس الآن بالأمر الهين ، بل إننا سنلاقى فى سبيله صعابا جمة ؛ وذلك لأن لدى الأتراك جنودا لا يقلون عن جنودنا بأساً وشهامة ، وإذا تحرك أسطولهم لقتالنا ، وهاجموا به شواطئنا ، حاق بك من الضرر أكثر مما يحيق بى »[1] .

نرى روح الاحترام تسرى فى هذه اللغة رغم وضوحها وصراحتها ؛ وقد نقلنا هذه الفقرة عن رسالة طويلة ، إذا قرأت أصلها التركى لم يبق لديك شىء من الشك فى وفاء إبراهيم وإخلاصه لأبيه . لكنه كان يناقشه فى مسألة سياسية قد تترتب عليها نتائج هامة ، وكان حبه العظيم لأبيه لا يسمح له بأن يترك فى آرائه شيئاً ولو قليلا من الغموض . ولم نعثر على ما أجاب به محمد على ، وإن كان بين يدينا خطاب آخر من إبراهيم مؤرخ ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٣٤ ، نستطيع أن نعرف منه هذا الرد المفقود . لكننا سنقتصر على نقل بعض ما جاء فى هذا الخطاب . قال إبراهيم :

« كتبتم إلى تقولون إننى قد أخطأت فى فهم المقصود من خطابكم ، وإنكم

(١) القسم التركى من المحفوظات الملكية المصرية بسراى عابدين .

قلتم إننا يجب علينا أن نحطم الأغلال التى تطوق أعناقنا ، ولكنكم لم تقولوا بعد ذلك إننا يجب أن نضع هذه الأغلال فى رقاب الأتراك . لقد فهمت ما قلتموه حق الفهم . إنكم لم تقولوا إننا يجب أن نحاول وضع هذه الأغلال فى رقاب الأتراك ، بل تقولت ذلك عليكم ، فهل تسمحون لى أن أخبركم عن السبب ؟ .

« يدعى رجال الدولة العثمانية أنها مركز الخلافة ؛ وحجتهم فى ذلك أنها تمتلك المدينتين الإسلاميتين المقدستين مقر الحرمين الشريفين . والحقيقة أن مصر هى مالكة الحرمين ، لأنها هى التى تحكم الحجاز . فإذا أعلنا استقلالنا سقطت حجة الباب العالى ، إذ لا يستطيع الأئمة عندئذ أن يعلنوا من فوق المنابر أن السلطان هو خادم الحرمين الشريفين ؛ لأن الناس كلهم يعرفون أن مصر هى المسيطرة على الحجاز وعلى الأماكن المقدسة . وهذا هو ما أقصده بقولى إن الأغلال ستوضع فى أعناق الأتراك »[1] .

وتبادل الوالد والولد الرسائل بعد ذلك الخطاب ؛ وظل إبراهيم مصرا على قوله إن الوقت لم يبق ملائماً لمهاجمة السلطان . وتدل خطاباته على أنه أصبح شديد الحيطة وأن بأسه الشديد قد تبدل بالدهاء الذى كان يبدو ظاهراً فى طباع أبيه . فلما أصبح محمد على يفضل المقاتلة على المخاتلة ، أضحى هو من دعاة اليقظة والحذر ، وخشى أن يستاء أبوه من تمسكه بآرائه التى أبداها فى خطابه فقال :

« وكل الذى يحملنى على أن أعيد ذكر ما مضى على مسامعكم ، هو حرصى على أن لا نبرم أمراً إلا بعد أن نتبين أثره ، ونزن بعقولنا ما يترتب على أعمالنا من العواقب »[2] .

---

(١) القسم التركى من المحفوظات الملكية المصرية بسراى عابدين .

(٢) القسم التركى من المحفوظات الملكية المصرية بسراى عابدين .

وكان إبراهيم قد بلغ الخامسة والأربعين من عمره حينما تبدلت أخلاقه هذا التبدل الظاهر . ولا عجب فى ذلك فإن من أكبر ما امتاز به إبراهيم أن أفقه العقلى كان دائم الاتساع .

بدأ إبراهيم حياته دفتردار لا يرحم ولا يلين ؛ فلما ولى أمر الشام جعل شعاره فى حكمه المساواة فى الضرائب . كذلك لما طبقت شهرته الخافقين بعد حرب الحجاز ، كان لا يعرف شيئاً من الخطط الحربية الحديثة ؛ فلما كبر عرف أن العالم لم تعد تصلح له تلك الخطط التى أنالته النصر على الوهابيين ، ولذلك شرع يدرس الفنون الحربية الأوربية ؛ ولم يدخر جهداً فى سبيل إتقانها ومعرفة كل صغيرة وكبيرة فيها . وهو الذى كان يشير بانتهاج منهج الحزم والشدة فى معاملة الأتراك ، واستمسك جهده بهذه الخطة التى كان يدعو إليها ؛ لكنه الآن قد أوتى من الشجاعة الأدبية ما جعله يرى أن الظروف قد تبدلت ، فأصبح فرضاً عليه أن يبدل تبعاً لها موقفه ، سواء كان مخطئاً أو مصيباً فيما كان يراه أيام كوتاهية .

لقد قلنا إن بطانة محمد على كانت لا تفتأ تذكر له كرمه فى معاملة عدوه المنهزم ؛ ولكنه لم يستبدل بموقفه الأول ، موقف السياسى الحذر ، موقفه الجديد أى موقف القائد الشديد البطش ، لهذا السبب وحده ؛ بل كان للسياسة الأوربية يد فى ذلك . إن لهذه السياسة فى جميع أدوارها دخائلها وخفاياها . لقد كان اللورد پلمرستون Palmerstone ينظر إلى محمد على فيرى فيه الحاكم المحتل لطريق الهند[1] ؛ فكان لذلك يبغضه من صميم قلبه . وهذا السبب عينه وهو كراهية وزير الخارجية البريطانية لمحمد على ، هو الذى بعث فى قلب الملك الشعبى لوى فليب العطف عليه ، وإن كان هو الذى اخترع لفظ « الاتفاق

(١) پلمرستون تأليف فليب جودلا طبعة إرنست بن بلندن ص ١٧٥ .

الودى » ليصف به الصداقة التى توثقت عراها بعد ذلك بقليل بين باريس واندن ؛ ولما كانت العداوة مستحكمة [١] بين قيصر الروسيا و إمبراطور النمسا ، فإن معاونة نقولا إلى السلطان جعلت مترنيخ يلاطف محمداً عليا .

ولم يسلك لوى فيليب ومترنيخ مسلكا واحداً فى مصانعة محمد على والثناء عليه ، فقد وكل مترنيخ الأمر إلى الكونت بروكش أوستن Count Prokesch Osten وأفهمه أن يضرب على نغمة الإمبراطورية العربية المجيدة . وأما ملك فرنسا فقد أفهم ميمو أن يستهوى محمداً عليا بالضرب على نغمة الاستقلال الساحرة . وقد لا يكون فى عمله هـذا شىء من عدم الإخلاص ، وذلك لأن الاحتفاظ بكيان الدولة العثمانية لم يكن من المبادئ الأساسية لسياسة فرنسا الخارجية . والدليل على ذلك أن حكومة آل بوربون هاجمت الجزائر ، وأن حكومة لوى فيليب كانت تحبذ تقسيم الدولة العثمانية ، وأن فرنسا أمدت محمداً عليا بما يلزم لجيشه وأسطوله من الجند والبحارة ، وأن الخبراء الذين كانوا يشرفون على الأعمال فى أحواض السفن ومصانعها بالإسكندرية كانوا من الفرنسيين . وكان من رأى باريس أن استقلال مصر قد أصبح حقيقة واقعة لا ينقصه إلا الاعتراف به اعترافاً قانونيا ، لكى يمسى أمراً غير قابل للنزاع . ولذلك وجهت جميع جهودها لإقناع السلطان بالموافقة على هذا الرأى . وقد وصف ميمو سياسته بقوله : « إن الواجب الملقى على عاتق فرنسا هو أن تضم نصفى الدولة أحدهما إلى الآخر » .

وفى خلال هذه الشهور التى كان فيها محمد على يُهْدَى إلى أنواع جديدة من النشاط العقلى ، كان إبراهيم ينظم حكومة الشام المدنية ، و يستعد لمقاتلة تركيا . وتحقيقاً لهذه الأغراض نقل مقر القيادة العامة إلى انطاكية . ولما اختار إبراهيم

(١) فى الأصل الإنجليزى « الصداقة متينة » وهو ما لا يؤيده الواقع ولا يحتمله المعنى ، وهو إما تهكم أو سهو من المؤلف . (المعرب)

مقر كرسى القديس بطرس ليكون قاعدة لأعماله العسكرية ، كانت هـذه المدينة محاطة بأسوار عظيمة الأهمية ؛ وكانت قلعتها جزءاً من الصخر الأصم ، أسوارها تشهد للمهندسين القدماء بالبراعة والإتقان . ولـكن هذه الـكنوز الأثرية لم يكن لهـا معنى لديه لأن جنوده كانوا فى حاجة إلى ثـكنات يأوون إليها ، فإذا شاء أن يستورد ما يحتاجه من مواد البناء لإقامتها كلفه ذلك أموالا طائلة ؛ فاتخذ الأسوار القديمة مقالع لأحجار البناء .

ومرت الشهور يتلو بعضها بعضاً من غير أن يتصادم الأتراك والمصريون . وأتى على الاثنين حين من الزمان بدا فيه أن المخافر الأمامية للقوتين لن يقع بينهما قتال . فلما كان اليوم الثالث والعشرون من شهر إبريل سنة ١٨٣٩ ، وقع ما كان لا بد من وقوعه ، إذ تخطى القائد العثمانى العام ومعه أركان حربه البروسيون الحدود الفاصلة بين البلدين ، واقترب من إحدى الفرق المصرية . وكان مع الفصيلة التركية هلموث ڤون ملتكه Helmuth Von Moltke ، الذى خلّد ذكراه فى موقعة سيدان Sedan . ولم يخف على إبراهيم ما كان يقصده الأتراك بهذا التحدى ؛ ولـكنه جعل السياسة العليا تسيطر على خططه العسكرية ، لأنه كان يعرف أنه إذا استفزه هذا التحدى تطاير شرر الحرب مرة أخرى . وكان يرى أن هذه الخطوة الخطيرة لا يصح أن يخطوها هو ، بل يجب أن يترك أمر تقريرها لأبيه . ولذلك أرسل من فوره الرسل إلى الباشا ليخبروه بما وقع ؛ ولـكنه لم يقف مكتوف الأيدى حتى يرجع هؤلاء الرسل ، بل أمر قواد فيالقه أن يستعدوا للقتال فى الحال ؛ ثم استقدم إليـه أعيان البلاد المجاورة وأطلعهم على ما حدث ، وأخبرهم أنه فى حاجة إلى معاونتهم الودية .

ولما وصل رسل إبراهيم إلى محمد على أمر ناظر حربيته أحمد باشا أن يسافر على

الفور إلى ميدان القتال . فلما بلغ هذا النبأ مسامع القنصل الفرنسى احتج عليه ، وقال إن اتصال ناظر الحربية بإبراهيم لا بد أن يؤدى إلى نشوب القتال ، فلم يعبأ الباشا بهذا الاحتجاج ، بل أعاره أذناً صماء . وعندئذ واصل القنصل الفرنسى هجومه فقال : « ستتحملون سموكم تبعة الحرب إذا سمحتم لأحمد باشا بأن يتصل بإبراهيم ، وإنى أؤكد لكم أن السلطان يرغب فى السلم وأن فرنسا أيضاً راغبة فيه » . فرد عليه محمد على من فوره بقوله : « إذا ضمنتم لى عدم تقدم الأتراك فإننى لا أكتفى بإبقاء أحمد باشا بالقاهرة ، بل سأستدعى فى الحال إبراهيم وجيشه »

فانشرح صدر القنصل لما سمع هـذا القول ، وأبرز لساعته رسالة من روسن السفير الطائش يقول فيها إن السلطان أكد له أن الباب العالى يجنح للسلم . وختم السياسى البحار خطابه بقوله : « لقد قالت فرنسا كلمتها ، واتُّبعت نصيحتها ، فأذع رسالتى فى طول البلاد وعرضها » .

وكان لمحمد على ذاكرة قوية وبديهة حاضرة ؛ ولم يكن أمر روسن خافياً عليه ، ولم يشك قط فى صدق القنصل ولا فى إخلاص السفير الذى تلاقى تجاربه الأولى على ظهر سفينة . وكل ما فعله أن التفت إلى قنصل النمسا الذى كان حاضراً هذا الحديث وقال له : « هل فى خطاباتك أنت أيضاً مثل هذه الضمانات السلمية ؟ وهل تستطيع أنت أيضاً أن تؤكد لى ما أكده زميلك ؟ » فكان الجواب سلباً . وعندئذ لم يتردد محمد على فى الرد بل قال : « سيدى إننى أعرف ما يجرى الآن فى الآستانة ؛ وإن أبسط مبادئ الحزم لتدفعنى إلى العمل دفعاً ؛ ولا بد من أن آمر أحمد باشا بالسفر فى الوقت والساعة » وصدرت هذه الأوامر قبل أن يقوم محمد على من مقامه[1] .

(١) سليمان باشا تأليف إيميه ڤنترنييه طبع فرمن — ديدو بباريس سنة ١٨٦٦ ص ٢٩٦ .